التجربة النقدية عند" محمد مفتاح" من خلا ل كتابه

(تحليل الخطاب الشعري واستراتيجية التناص).

أ. علي مصباحي ، جامعة باتنة

ملخص المقال:

أ- ملخص المقالة باللغة العربية:

شكلت كتابات الدكتور محمد مفتاح حدثا ثقافيا و فكريا في الساحة النقدية المعاصرة جعلتها رائدة لاعتبارات عدة لعل أهمها إسهامها في بلورة مشروع ثقافي نقدي يروم مسألة التراث العربي المهموم بالذات و الهوية العربيتين، و كذلك سعيها في تمثيل النظريات العلمية الحديثة كالذكاء الاصطناعي و علم النفس المعرفي، في دراسة التراث العربي بأدوات إجرائية غربية و استنطاقها و اكتشاف خفاياها.

وكما أن المتأمل في كتابات الناقد يرى أن كتابه «تحليل الخطاب الشعري و استراتيجية التناص» من أهم كتبه النقدية لأنه شكل نقطة تحول كبرى في الفكر النقدي المغربي خاصة و العربي عامة لكونه يؤسس لخطاب نقدي يعمل على وضع الشفرات الأبستمولوجية للممارسة النقدية و معرفة المكون المعرفي لها و ذلك بقسميها سواء القسم القديم المتمثل في التراث العربي و مؤلفات القدامى كابن رشيق القيرواني و حازم القرطاجني ... و القسم ثان يتمثل في المراجع و المصادر الأجنبية، فنجد حضورا كبيرا للمدارس اللسانية الغربية. بهذا التأصيل الأبستمولوجي الذي أحياه الناقد في كتابه حاول من خلاله دراسة قصيدة "ابن عبدون" ليفتح بهذه الدراسة الباب واسعا على مصراعيه أمام النقاد لمشروعه النقدي المفتوح بما فيه من توجهات فكرية و معرفية جديدة.

ب- الملخص باللغة الانجليزية:

Abstract**:**

he writings of Dr. Mohamed Meftah are a cultural and an intellectually event that made them distinct in the arena of contemporary critic for many reasons, perhaps the most important of which is its contribution to the elaboration of a cultural critic project aiming the Arab cultural heritage concerned by itself and its identity. Besides, its, these writings, representation of modern scientific theories like artificial intelligence and psychology of knowledge in the study of Arab heritage with occidental procedural tools to uncover its depths .

Readers of the writings of the critic may notice that his book "An analysis of poetic discourse and the intertextuality strategy"

is the most important critic writing for it is a major turning point in both Moroccan and Arab critical thinking because it establishes a critic discourse working on putting epistemological codes for the critical practice and knowing its substantial knowledge through its two parts: a Classical part represented in the Arab heritage and the works of the ancients like Ibn Rasheek Al Kayrawani and Hazim Al Kartajani; and a second part which is represented by references and foreign sources where a massive presence of the occidental linguistics schools .

Through this epistemological rooting that the critic settled in his book, he tried to study the poem of Ibn Abdoun opening the doors wide to the critics for his critic project with its new orientations and ideas

تمهيد:

تقوم أية قراءة نقدية بوصفها ذات فعالية منشطة وسابرة لأغوار النصوص على ركيزتين أساسيتين مهمتين هما: "الرؤية" التي تصدر عن الناقد، و"المنهج" الذي يتبعه لتحقيق الأهداف التي يتوخاها من قراءته. (1)

فـ"الرؤية" هي خلاصة الفهم الشامل للفعالية الإبداعية، أما "المنهج" فهو سلسلة العمليات المنظمة التي يهتدي بها الناقد وهو يباشر وصف النصوص الإبداعية وتنشيطها واستنطاقها، شرط أن يكون المنهج مستخلصاً من آفاق تلك الرؤية(2). وهذا ما استشفيناه وبل وجدناه متجسداً في الكتابات والآراء النقدية "لمحمد مفتاح"، الذي استطاع من خلال كتاباته أن يرسم مع كوكبة من النقاد المغاربة حركة نقدية جادة استطاعت أن تساير التطور الحاصل في مجال النقد المعاصر، وأن يشاركوا بفكرهم في تشييد بنيان جديد ينهض بالآدب والنقد. وبفضل هذه الحركة المتوثبة النشطة التي أظهرت على يد هذه المجموعة من النقاد في المغرب العربي ظهرت كتابات جديدة ذات صبغة متميزة، حيث أنها لم ترض بالموروث من الأحكام الانطباعية النقدية ولا بالقراءة العابرة الفوقية السطحية ، بل راحت تعكف على دراسة الأعمال الأدبية في تأن وصبر وجلد، مستهدين في دراستها بمقاييس جديدة في النقد(3)

وانطلاقا من هذا وذاك ومن هذه البؤرة المتشجرة، والمتأمل في كتابات الناقد المغربي "محمد مفتاح" يجدها شكلت حدثا ثقافيا وفكريا للنقد بالوطن العربي بصورة عامة

والمغرب العربي بصورة خاصة .ولعل العكوف على دراسة وتحليل آرائه وأفكاره واستنباط المواقف والنظريات التي تبناها ومعرفة المنهج المتبع في كتاباته، وهو يباشر العملية الإبداعية من خلال دراسة النصوص الادبية المختلفة وتنشيطها واستنطاقها .أصبح ضرورة ملحة لأنها قدمت إضافة متميزة للساحة النقدية من جهة، وغوصه في النصوص الادبية التراثية واكتشاف جمالياتها وخفاياها من جهة أخرى[1]. باعتباره حاول دراسة الموروث العربي القديم بمناهج نقدية غربية، مستعيناً ببعض العلوم التجريبية البحتة، مثل: علم النفس المعرفي، والنظرية السيموطيقية و نظرية الحرمان ،بل ذهب أكثر من ذلك فاستعان بالذكاء الاصطناعي [2]والذي اعتبره وليد تنظيرات "بيرس" حينما صرح "أن السيميوطيقا البورسية، هي من بين الأسس التي قامت عليها نظريات الذكاء الاصطناعي في وصف عملية الإنتاج والتلقي وتأويله ،أو هي وليدة ثورة المعلومات والإعلامية و البيولوجيا على حد سواء فقد حاولت هذه النظرية التقريب بين ذاكرة الإنسان و ذاكرة الحاسوب لتجتمع في دراسات خاصة، الدراسات اللسانية من جهة، واللسانيات الحاسوبية من جهة ثانية إذ أصبحت من خلالها تُصنَع النصوص وتحلل وخصوصاً استثمار مفهوم الغرض الاستكشافي"[6]، وهي نظرية تم من خلالها اللقاء بين الدراسات اللسانية واللسانيات التحسبية، وإجراءات الذكاء الاصطناعي، إذ هو خلاصة اندماج مجموعة من النظريات البيولوجية والمعلوماتية والنفسانية والإعلامية التي صيغت خلالها نظريات ومفاهيم متعددة . [7] وهذا ما أفرز لنا رؤية نقدية متميزة للناقد " محمد مفتاح"، فكما هو معروف في الساحة النقدية المعاصرة ،وفي ظل إكراهات العولمة وأسئلة الحداثة التي تدعو إلى التغير المستمر في كل شيء، ولا شيء ثابت عندهم في الحياة أبدا ولذلك اعتبر "رولان بارت" الحداثة زلزالاً حضارياً عنيفاً وانقلاباً ثقافياً شاملاً لم يتوصل الإنسان المعاصر إلى السيطرة عليه[8] ويعرفها رائد الحداثة "علي أحمد سعيد" الملقب بـ"أدونيس" أن " الحداثة هي حركة تصدعات وانزياحات معرفية، قيمية، فإنّ واحداً من أهم الانزياحات وأبلغها، هو نقل حقل المقدس والأسرار في مجال العلاقات والقيم الدينية والماضوية إلى مجال الإنسان والتجربة والمعايشة"[9]

فبوفود الحداثة إلى البيئة العربية النقدية المعاصرة انقسم النقاد إلى ثلاثة اتجاهات كبرى ، منهم من دعا إلى احتضان الحداثة والاستفادة منها في كل شيء، واتجاه دعا إلى رفضها رفضاً كلياً خاصة التراثيون ذوي النظرة الدينية ، و هناك من وفق بين الاتجاهين، حيث أكدوا على ضرورة الاستفادة من المناهج النقدية الغربية في إضاءة التراث العربي وإعادة اكتشاف خفاياه و قراءته بأدوات جديدة يأتي في مقدمتهم "محمد مفتاح" الذي قرأ النصوص العربية القديمة بمناهج نقدية غربية ، مثل قصيدة "ابن عبدون" في كتابه (تحليل الخطاب الشعري وإستراتجية التناص) [10]. وقصيدة " أبي

البقاء الرندي" في رثاء الأندلس في كتابه "في سيمياء الشعر القديم" واستعان في تحليله بنظريات علمية مثل "الذكاء الاصطناعي و"علم النفس المعرفي"[11].

المشروع النقدي المفتوح في كتابات محمد مفتاح:

تميز المشروع النقدي لـ"محمد مفتاح" من خلال كتاباته ومنه الى مشروعه النقدي بعدة خصائص جعلته ذا كفاءة ووزن في الساحة النقدية في الوطن العربي، منها المزاوجة بين التنظير والتطبيق ومبدأ الفرضية الأساسية فجل كتاباته يقوم على فرضية يعمل الناقد على تأكيدها نظريا وتطبيقياً ، على غرار الانتقاء والترجيع الذي يتطلب نظرة دقيقة مُمحصة ترجح رأيا على آخر. وكما تميزت كتاباته بمبدأ النمو والتناسل، أي أن كل مؤلف يخرج من صلب مؤلف آخر مع مبدأ الاستمرار والتنظيم في كتاباته النقدية [12]، وهذا دليل خصوبة أفكار الناقد و شساعة مداركه ولعل من أهم و أكبر الآفاق التي حملتها التجربة النقدية لـ"مفتاح" في كتاباته، ومنه إلى مشروعه النقدي أنه ذو قدرة كبيرة على استيعاب مختلف النظريات والمناهج والمفاهيم، ثم قابليته للإفصاح عن نفسه أكثر كلما أدخلنا إليه أدوات علمية جديدة وتصورا نظريا أوسع من جهة، وقابليته للإغناء والمناقشة وهذه صفة المشاريع العلمية المحملة بالآراء والأفكار والفرضيات التي تدفع إلى حلقة حوار علمي بناء من جهة أخرى. [13]

التجربة النقدية عند "مفتاح" تجربة فريدة رائدة وذلك من حيث إسهامها في بلورة مشروع ثقافي يروم مسألة التراث العربي القديم المحمول بهموم الذات والهوية العربيتين من جهة ،ومن حيث سعيها لتمثيل النظريات العلمية الحديثة من جهة اخرى ، أي قراءة التراث العربي على ضوء المناهج الحديثة، و لذلك نجد حضوراً للبنيوية الشكلانية و السيميائيات الغريماسية و البورسية مثلما نجد حضوراً للنظريات العلمية الحديثة مثل الذكاء الاصطناعي، وعلم النفس المعرفي ونظريات التأويل المختلفة. وهذه دعوة صريحة من قبل الناقد لتعالق النصوص الإنسانية بالعلوم البحتة للخروج برؤية علمية منسجمة. [14]،كما تتضمن كتاباته مجموعة من الافتراضات المفتوحة التي تأتي في سياق تناول هذه الظاهرة أو تلك، و وجود هذه الافتراضات المفتوحة تجعلنا أمام كتابة موضوعية تقر بتأجيل القضايا التي لم تستطع الآلة المنهجية حلها وتتركها مفتوحة أمام قارئ ضمني، له مشروعية القراءة والاجتهاد ، معنى ذلك أن هذه الكتابة لا تحتكر الأحكام ولا تلزم الآخرين بها.[15]

لقد أعلن "مفتاح" التعددية المنهجية في المنهج السيميائي، مستعيناً بكثير من الإجراءات البنيوية واستعمل المربع السيميائي، وكذا العنصر الهندسي ونظرية الكوارث ونظرية الحرمان ونظرية الذكاء الاصطناعي، بيد أن هذه التعددية النقدية التي تبناها هي عملية تتطلب الرجوع إلى الخلفيات الابستمولوجية والتاريخية في الثقافة الغربية، التي خالف من خلالها جل النقاد العرب نظرا لرؤيته في مشروعه النقدي على أن النص الأدبي مفعم بالجمالية أو الأدبية وهذا ما يجعل الناقد يستعين بأكثر من منهج من أجل الدخول في مضامينه وتفكيك بناه ودراستها ولا يتم هذا إلا بالتوفيق بين المناهج

(السيميائية، التداولية، الجشتالتية) لتوسيع الاهتمام بالقصيدة والشاعر والمتلقي وكذا المقصدية، وهذا ما أدركه وأكده " مفتاح" ضمن مسّحَةِ جمالية تضمنها خاصية التوازي، وهذا ما صرح به في قوله:" "حينما نوينا الاستحياء من اللسانيات و السيميائيات ترددنا بين أمرين ممكنين: العكوف على ما كتبته مدرسة واحدة لفهم مبادئها العامة والخاصة ثم تطبيقها على الخطاب الشعري، ولكننا رفضنا هذا الخيار لأسباب موضوعية من حيث أن أية مدرسة لم تتفق إلى الآن في صياغة نظرية شاملة، وإنما كل ما نجده هو بعض المبادئ الجزئية والنسبية التي إذا أضاءت جوانب بقيت أخرى مظلمة، وقد أدى بنا هذا الشعور بقصور النظرة الأحادية إلى اختيار أمر ثان وهو التعدد رغم ما يتضمنه من مشاق ومزالق"[16]. يعتبر كتاب" في سيمياء الشعر القديم" حلقة ذهبية في سلسلة كتبه التي تميزت بالتناسل والنمو المقصود بالتناسل هنا هو خروج أعمال المؤلف الواحدة من صلب الأخرى بما يعطيها نوعاً من الوحدة في الهدف الذي تريد أن تحققه، وهذا ما نجده في كتاب (في سيمياء الشعر القديم) فقد خرج من صلب الكتابات التي سبقته وهي رسالته الجامعية حول التصوف في الغرب الإسلامي والمقالات التي كتبها آنذاك[17]. أما (كتابه التلقي والتأويل مقاربة نسقية) فقد عمق البحث في بعض القضايا التي طرحها في كتاب (مجهول البيان). وهذا عين الاستمرار المنتظم الذي يدقق فرضيات المشروع وأدواته كل مرة. وهذا ما أكده في قوله في مفتتح كتابه: " هذا الكتاب تعميق للبحث في بعض المسائل التي طرحناها في (مجهول البيان)، فقد أثرنا هنالك مسألة علاقة الاستعارة والكناية والمجاز بالمنطق الصوري، ومسألة العلاقة بين الاستعارة وبين قياس التمثيل، ومسألة التأويل وحدوده... فتابعنا البحث وكلنا أمل تعزيز تلك النتائج وتعضيدها بطرح مسائل جديدة حتى يحدث دينامية علمية متوخاة من كل بحث علمي جاد[18].

ومن خلال المنهج السيميائي حلل الناقد في كتابه" في سيمياء الشعر القديم " البنية الشعرية في(قصيدة أبي البقاء الرندي) أصواتاً و معاجماً وتركيبا ودلالة، واستند هذا التحليل إلى مفاهيم لسانية و سيميائية وشعرية منتقاة ، كما استند إلى مفاهيم بلاغية وقواعد نحوية يروم تحقيقها عبر ذلك المسار الجمالي في قراءة النص الأدبي عموماً والشعري الصوفي خصوصاً، فتم توظيف مفاهيم قديمة وحديثة منتقاة لقراءة الشعر القديم وللكشف عن جمالياته ورسالاته وموقعه ضمن الشق الثقافي العام ولذلك اتسم منهجه بالطابع الجمالي والطابع الدينامي، الذي أفرد له كتابا خاصاً، (دينامية النص- تنظيراً وانجازاً)، بغية تأسيس منهجي ذي كفاءة نقدية واضحة المعالم. وهذه الدينامية هي جوهر الإشكال في هذه الممارسة النقدية التحليلية.- كما يرى "مفتاح"- لما تحويّه من القوانين والنظريات المتعددة التي على أساسها ينهض التراث النقدي العربي على اعتبار أن الخطاب لا يخلو من قيمة بعيداً عن هذا المفهوم لأن الجمل داخله هي امتداد لما سبقها ولما بعدها ،والنص ينبني على عناصر مثل البساطة والتعقيد والسكون و الدينامية والتوازن و اللاتوازن ،و الانفتاح والانغلاق والاستقرار والتحول[19].

التأصيل الأبستمولوجي والتأسيس المنهجي في كتاب (تحليل الخطاب الشعري واستراتيجية التناص)

يعتبر كتاب (تحليل الخطاب الشعري واستراتيجية التناص) نقطة تحول نوعي في الفكر النقدي المعرفي لدى نقاد العرب المعاصرين، لكونه يؤسس لخطاب نقدي يعمل على وضع شفرات ابستمولوجية للممارسة النقدية لمرجعية الكتاب، والقارئ المتأمل في كتابات "محمد مفتاح" يجد أن كتاب (تحليل الخطاب واستراتيجية التناص) من أهم المراجع والكتب التي ألفها نظراً لعدة اعتبارات منها: غزارة الفكر النقدي الذي حواه، باعتبار هذا الكتاب هو القطب الأساسي الذي دارت حوله الآراء والأفكار النقدية لـ"محمد مفتاح" من جهة، والمتنفس الأساسي والكبير الذي عبر فيه "مفتاح" عن وجهات النظر والأفكار النقدية التي تَشَكل من خلالها المنهج من جهة أخرى .فكما هو معروف أن هذا الكتاب هو امتداد لكتابه (في سيمياء الشعر القديم) [20]

والمطلع على كتاب(في سيمياء الشعر القديم) و(تحليل الخطاب واستراتيجية التناص) يرى أنهما حلقتان ذهبيتان ضمن سلسلة ذهبية شكلت مشروعه النقدي الخصب والثري .

ويعتبر كتاب (تحليل الخطاب واستراتيجية التناص) نقطة تحول كبرى في الفكر النقدي المغربي عامة والفكر النقدي لـ "مفتاح" خاصة، لكونه يؤسس لخطاب نقدي يعمل على وضع شفرات إيستبمولوجية للممارسة النقدية لمعرفة المكون المعرفي الذي وضع من خلاله الناقد اللبنات الاساسية لأفكاره النقدية تأصيلا وتأسيسا وهذا ما يتطلب زخَمًا معرفياً كبيراً يشترط التأمل والتدقيق والتحليل والاستنتاج ،ومن هذا المنطلق أصل وأسس" مفتاح " كتابه على شفرات ابستمولوجية ودعائم معرفية قائمة على قسمين أساسيين هما:[21]

القسم الأول قديم: أو ما يسمى بالتراث العربي القديم سواء في المجال النقدي الأدبي ككتاب "ابن رشيق" (العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده)، و"حازم القرطاجني" (مناهج البلغاء وسراج الأدباء) و"ابن بسام" (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) [21].

القسم الثاني الحديث: وهي تلك المصادر والمراجع باللغة الأجنبية ومنها المراجع الفرانكفونية و الأنجلوساكسونية وتتوزع هذه الكتب بعدة مرجعيات في ممارسات مختلفة من اللسانيات البنيوية والتوليدية و السيميائيات بمختلف مدارسها : السرديات، نظريات تحليل الخطاب، و الهيرمينوطيقا والتداوليات ويمكن تفصيل هذه المشارب والمعارف المستقاة والمنتقاة فيما يلي[22]

أ- التيار التداولي: والذي بدوره يدرس استخدام اللغة داخل الخطابات والسمات المميزة التي تؤسس وجهته الخطابية في صلب اللغة أو بصياغ آخر هو ذلك العلم الذي يدرس الظواهر اللغوية في مجال الاستعمال[23]. هو بحد ذاته يتفرع إلى شعبتين كبيرتين هما:

ـ **نظرية الذاتية اللغوية:** وضعها "موريس" ومارس البحث فيها ليسانيون كثيرون فتناولوا ظواهر لغوية عديدة (المعينات، الألفاظ، القيمة..) [24]

ـ **نظرية الأفعال الكلامية:** أسسها فلاسفة "أكسفورد" ضد الوضعية المنطقية التي كانت لا تقبل من التعابير إلا الأخبار القابلة للتمحيص والتجريب وأبرز ممثليها "اوستين"، "سورل"،"كرايس" على أن هؤلاء لم يتخلوا عن النزعة الاختزالية والوضعية ، وقد تجلى هذا في مفاهيم "سورل" الإجرائية بصفة خاصة وبفضل مجهودات هؤلاء العلماء تحولت الفلسفة اللغوية الى مجال يبحث في مشكلات اللغة إذ أن "أوستين" لا يقول بالتقسيم التقليدي للقضايا والجمل الى خبرية وانشائية وبالتالي الاحتكام الى معيار الصدق والكذب وانما ينطلق من موقف جديد هو الوحدة الاساسية للغة هي ألأفعال الكلامية وإذا اعتبرنا الاقوال أفعالا فإنها تسعى الى تحقيق شيءٍ ما ،وبالتالي فإن المسالة لا تتعلق بالصدق أو الكذب فقط و أنما تتعلق بالسياق الذي يتم فيه الفعل أيضا [25]

وعلى الرغم من الانتقادات التي توجه لهذه النظرية على مستوى تحليلها للغة العادية أو على موقفها من اللغة الخيالية فإنها تقدم دراسات مفيدة حول ظاهرة لغوية هي من صميم الخطاب الأدبي كالأفعال الكلامية اللامباشرة وأسماء الأعلام والأوصاف المحددة والاستعارة[26].

ب- التيار السميوطيقي: من أهم ممثليه "غريماس" ومدرسته وقد استقى نظريته من مصادر معرفية متعددة ، دراسات انثروبولوجية، ولسانيات بنيوية وتوليدية ومنطقية، وقد استقى التيار السميوطيقي أفكاره ومعانيه من خلال المؤلفات التالية[27]:

ـ **كتاب محاولات في السيميوطيقية الشعرية**: هذا الكتاب عبارة عن ملف يحوي دراسات للخطاب الشعري في شكله ومضمونه، ونجد فيه عناية بالمكونات النغمية و الإيقاعية ، كما نعثر فيه على مفاهيم إجرائية واقتراحات نظرية لكيفية القراءة[28].

ـ **بلاغة الشعر لجماعة M :** إن هذا الكتاب متنوع القنوات المعرفية التي استقى منها النظرية الجشتالتية والتحليل النفسي و الأنثروبولوجيا و السيميوطيقا واللسانيات. ومع هذا التنوع إلا أن جوهر هذا الكتاب يسرد في تيار "غريماس"، إلا أن هذا الكتاب أفاض القول في التشاكل فناقشه وأعاد تعريفه وتفريعه واستغل مفهوم المقابلة فصاغ على ضوئه نموذجاً ثلاثيا يقوم على متقابلين بينهما واسطة رمزية أو مقالية أو بلاغية وخصص حيزاً كبيراً للتعبير الشعري بعناصره المختلفة[29].

ـ **كتاب سيميوطيقا الشعر:** لـ"ميكائيل ريفاتير" لقد تحمس هذا المؤلف للتناول السيميوطيقي (السيميائي) للشعر إذ هو أخصب في نظره من التحليل اللساني، و للبرهنة على هذه الفرضية أقام كتابه على عدة مفاهيم إجرائية آنية من آفاق معرفية مختلفة: الجشتالتية باعتبارها لم تكن اطارا سيكولوجيا بل كانت عبارة عن اتجاه كلي حول الاتساق والتنظيمات سواء أكانت بيولوجية أم فيزيائية وقد عملت في تطبيقاتها الاجرائية في مجال الادراك فكانت اكثر اقناعا ،كما امتدت في اطارها المعرفي وتفسيراتها المفهومية الى مجالات عديدة منها السلوك الاجتماعي والتعليليه والنشاط الفني . [30]

وكذلك استقى من نظرية التلقي لأن التغير الجوهري الذي ساد دراسة النصوص الفنية هو الدور الذي أخذ يلعبه القارئ في تلقي النص الفني حتى قيل أن القارئ هو الذي ينتج النص .[31]

والتيار السيميوطيقي بطبيعة الحال ومنها الواقع الخارجي والواقع الداخلي. - **معجم "غريماس" و"كورتيس":** ولتشخيص موقفها من الشعر سنحاول استخلاص بعض المفاهيم الإجرائية القريبة من الشعر و بين المفاهيم الأخرى العامة الصالحة لكل خطاب، نجد في المعجم عدة مداخل تتعلق بالشكل وهي الوقائع النغمية والإيقاع، كما نعثر على أخرى خاصة بالمضمون مثل التشاكل والمعنى العرضي، والاستعارة ،والانزياح، والمرجعية الداخلية[32]

وعلى ضوء ما تقدم حاول الناقد أن يستخلص القواسم المشتركة بين المنظرين السيميوطيقيين للشعر وأهمها: [33]

- قراءة النص الشعري من وجهيه التعبيري والمضمون.
- تعدد القراءات للنص الواحد بناء على تطبيق مفهوم الشكل.
- النص الشعري لعب لغوي.
- النص الشعري منغلق على نفسه له عالمه وخياله الخاصان به فلا يحيل على الواقع إلا ليخرقه.
- جدلية النص والقراءة.

على أن هناك خلافا إلى جانب هذا الاشتراك، فقد بدأ هذا الاتجاه متأثراً بالدراسات اللسانية والبنيوية و بالانثروبولوجيا، ثم ساير التجديد بإدماج بعض المسلمات النظرية التوليدية وبعض النتائج المنطقية والتداولية.

ج- التيار الشعري:

نهل الناقد من مساهمات "جاكبسون" حيث كان له الفضل في تأسيس النظرية الشعرية الحديثة التي نحت منحى خاص في الادب إذ كان "جاكبسون" يري أن موضوع العلم الادبي ليس هو الادب وإنما الادبية Literarity أي ما يجعل من عمل ما عملا أدبيا وبهذا يكون البحث منصبا على أدبية الادب بوصفه لغة من دون تأمل في التجليات الفلسفية والنفسية والجمالية والايديولوجية المنبثقة عنه [34].

كما كان "جاكبسون" باحثاً ذا خبرة واطلاع واسع إذ لم يُبْق على تلك الثنائية المتناقضة المتعلقة باللفظ والمعني .

كما نهل الناقد " مفتاح " من كتابات وأفكار "جون كوهين" الذي انطلق من مسلمة تقول: أن الشعر يقوم على المجاز وبخاصة الاستعارة، ومن ثمة فإنه يقوم على خرق العادة اللغوية. ويرى "مفتاح" أن اختزال التعددية إلى الوحدة غير كاف، لأنه اقتصر على النظرية التفاعلية في الاستعارة وليست إلا أحدى النظريات فيها، ولأن الاستعارة غير خاصة بالخطاب الشعري وإنما نحيا بها. و باختصار فإن هناك اختزالا على مستوى التنظير وعلى مستوى مواد البرهنة عليها[35].

كما استفاد من كتابات وأفكار "ج.مولينو" و"ج.طامين" ،وأن ما يصدم في هذا الكتاب هو هجومه على المُدَّعين بأن الحل السحري لكل مغاليق الخطاب الشعري هو التحليل اللساني لأن دعواهم قائمة على غير بينة، فالشعرية التوليدية فشلت إذ لم تتجاوز ترجمة بعض المفاهيم القديمة وتحليل "جاكبسون" بسيط وفوق هذا وذلك إذا كان اللسانيون عجزوا عن إعطائنا قوانين للسيطرة على اللغة اليومية فكيف يستطيعون أن تقديم قواعد لوصف الخطاب الشعري. (36)

وبهذه المرجعيات والمشارب المختلفة التي كونت الأرضية الابستمولوجية لكتابه يحاول "محمد مفتاح" أن يوفق بين هذه التيارات ولكن ليس بسهل. وفي هذا يقول "مفتاح": " نستطيع أن نتغلب على العوائق الابستمولوجية والإجرائية، وأن نتمكن من فرز العناصر النظرية الصالحة لاستثمارها في إطار بناء منسجم إذا تعرفنا على تلك الخلفية"(37).

ومن أهم عناصر هذه الخلفية التي تُبنى بطريقة منسجمة يمكن استثمارها(38):

- اللغة محايدة برئية عند " تشومسكي"، "كرايس"، ويقابلها اللغة مخادعة مضللة تظهر غير ما تخفي.
- اللغة تصف واقعاً وتعكسه عند الوضعيين والماركسيين ويقابلها اللغة تخلق واقعا جديداً وهذا عند (الجشتالتيين و الشعراء)
- الذات المتكاملة هي العلة الأولى والأخيرة في إصدار الخطاب، وهذا عند المقصديين عند "سورل"، ويقابلها الهيأة المتلقية لها دور كبير في إيجاد الخطاب وتكوينه وهذا عند النظرية التفاعلية فمن خلال اعتماد العمل النقدي على هذه المرجعيات يكون "مفتاح" قد أرخ لتحول عميق في الممارسة والفكر النقديين بالمغرب والتي كانت تطغى عليه حتى وقت قريب من صدور هذا الكتاب البنيوية التكوينية أو بعض المناهج ذات الأصول السيكولوجية أو السوسيولوجية.

فنحن إذن أمام عمل مركب يمارس عدة وظائف فهو من جهة يفتح النقد المغربي على مرجعيات جديدة ويعمل على تأطير علاقة الممارسة النقدية بالمرجعية والذي تجاوز السجال السابق والمتعلق بإشكالية الذات والموضوع أو علاقة المنهج بالموضوع وتطويع المنهج المستورد ويعمل على تقويم بسيط لعدة نظريات من خلال إبراز قوتها وحدود الإمكانيات المعرفية، التي قدمتها وتقدمها للبحث العلمي. والحقيقة التي لا مناص من ذكرها أن العمل تخليص للتراث العربي بشقيه الإبداعي والنقدي (البلاغي)من التصور المتحجر الذي كان يمارس عليه، كما أن هذا العمل يحمل وعيا أبستمولوجيا وتاريخيا للنظرية النقدية وقد اعترف "مفتاح" بهذا الجمع لأكثر من منهج، وأنه قد استوحى من عدة علوم لسانية بتياراتها المختلفة (التداولية السيميائية والشعرية)، و بالسيمياء واتجاهاتها المتنوعة ومن البلاغة (الإبدالية والتفاعلية العلاقية، الجشتالتية والمقومات) لاعتبار أن تكامل هذه المناهج فيما بينها وما تحمله من أدوات وأليات نقدية إجرائية تُتيح للناقد وهو يُباشر العملية النقدية فرصة أكبر لإضاءة النص الادبي والغوص في عوالمه

الباطنية واكتشاف دلالاته المُضمرة والخَفية لأنه نص موصوف بأنه مُراوغ مُخاتل يُخفي أكثر مما يُظهر .[39]

التوجهات النقدية في الكتاب :

القارئ للكتاب يجد أنه عَجَّ بعديد الافكار والمعارف النقدية التي استقاها وانتقاها الناقد من التراث العربي وكنوزه الغزيرة، وما جادت به الحضارة الغربية من مناهج نقدية حديثة في ظل ما يعرف بالحداثة ، بالإضافة الى ما استنتجه واستنبطه الناقد وهو يباشر العملية الابداعية للنصوص الادبية ويمكن جمع بعضها وأهمها في ما يلي:

1- رصد الناقد قصيدة "ابن عبدون" في ثلاث بنيات أساسية وهي بنية التوتر ،و بنية الاستسلام وبنية الرجاء والرهبة، وهذه مطابقة لتقسيم الأوربيين لشعرهم، إذ عندهم الغنائي، الملحمي، المأساوي[40].

2- يرى "محمد مفتاح" أن مفهوم التشاكل والتباين الذي وصل إليه "غريماس" و "راستي" وما أقروه من شروط و تعاريف يحتاج إلى مناقشة، وذلك أنه لا ينطبق إلا على الخطاب العلمي أوعلى ما شاكله ، بينما الخطاب الشعري والأسطوري لا يقبل هذه الشروط لأن الشاعر يجمع بين المتناقضين، و في ذلك الجمع غرابة هي سر القبول بالشعر والتلذذ بتعبير البلاغيين العرب، لان أعذب الشعر أكذبه كما تقول العرب ولهذا لا يمكن تطبيق مفهوم التشاكل والتباين عند "غريماس" و "راستي " في الخطاب الشعري لأنه لا يخضع الى قوانين ثابتة الدلالة كالخطاب العلمي الذي ليس حمالا لأوجه في الدلالة .

3- وفي التحدث عن الصوت والمعنى أكد " محمد مفتاح" أن اللعب باللغة جوهر العمل الأدبي والشعر خاصة، ويضيف إليها "محمد مفتاح" الوزن والعروض حيث أن البحر يتحكم فيه مبدأ التشاكل المتقن، سواء عن طريق التفعيلة والنبر أو الإيقاع، وما يؤكد فرضية " محمد مفتاح" وهذا ما عمل به النقاد العرب القدامى وفي هذا الصدد يقول "أبن الاثير" <<فإن العرب قد أصلحوا الفاظهم ورققوا حواشيها وصقلوا أطرافها فلا تظنن أن العناية إذ ذاك إنما هي بالألفاظ فقط بل هي خدمة منهم للمعاني ونظير ذلك ابراز صورة الحسناء في الحُلل المُوشية والاثواب المُحَبرة >>. [41]

4- فرق "مفتاح" بين البؤرة النحوية والبؤرة الخطابية، حيث رأى أن الأولى قابلة للتعقيد وبينما الثانية مقصدية متعلقة بنوايا المتكلم والمتلقي . [42]

5- توقف "مفتاح" عند الاستعارة لاعتبارها خرقا للقوانين اللغة أوهي زاوية الخيال كما يصفها "سايس" sayce . [43] .ونظرا لأنها تتصدر بشكل كبير بنية الكلام الانساني إذ تعد عاملا رئيسيا في الحفز والحث واداة تعبيرية ومصدرا للترادف وتعدد المعاني ومنسقا للعواطف والمشاعر الانفعالية الحادة ووسيلة لملء الفراغات والمصطلحات . [44]عرض الناقد كثيرا من الآراء سواء للنقاد للقدامى وخاصة علماء البلاغة أوالمُحَدثين الغربيين والعرب وأكد أن الاستعارة لا تزال تحتل مكاناً مرموقاً في الدراسات الاستعارية الحديثة. و يرى "محمد مفتاح" أن هناك تداخلاً بين الاستعارة والكناية والمجاز

المرسل ويتجلى في الانطلاق في العملية الاستبدالية لفهم الخطاب وعملية انتقاء عناصر دون أخرى إذ أن النظرية الاستبدالية ترى أن الاستعارة لا تتعلق الا بالكلمة المعجمية الواحدة فقط بغض النظر عن السياق الوارد فيه ،ويكون للكلمة معنيان معنى حقيقي ومعنى مجازي وتحصل الاستعارة باستبدال كلمة مجازية بكلمة حقيقية. (45)

. وخرج "مفتاح" بنتيجة مفادها أن مختلف وجهات النظر في الاستعارة لا تتزاحم ولكنها تتكامل، إذ ليس ثمة نظرية واحدة قادرة على صياغة قوانين لإنتاج الاستعارة وتأويلها ، وذلك لأن الاستعارة ليست تعبيراً عما هو كائن فحسب ولكنها تخلق ما ليس بكائن أيضاً.

6- يرى "محمد مفتاح" أن الخطاب اللغوي ينبني من مادة الألفاظ التي تؤلف بينها آليات التركيب بنوعيه (البلاغي النحوي) ويستوعبها جميعا التناص بالمفهوم الغربي الذي أتَتْ به جوليا كريستيفا << إذ هو التداخل الذي يشير الى مبدأ التعالق مع النص من خلال علائق الحضور، ذلك أنه تتم صياغتها عبر امتصاه في نفس الآن عبر هدم نصوص أخرى للفضاء المتداخل نصيا >> (46).

والتناص بدوره أخذ حيزاً كبيراً في الكتاب و اختير كعنوان فرعي من قبل المؤلف الذي رآه ضرورياً للشاعر كضرورة الهواء والماء بالنسبة للإنسان وفصل "مفتاح" في أشكاله المختلفة منها التمطيط الشرح، الإيجاز الاستعارة ، التكرار ، الشكل الدرامي ، وإيقونية الكتابة ....الخ

7- الجوامع التي تربط خيوط القصيدة حسب الناقد "مفتاح" تكمن في شيئين اثنين هما: الذاتية اللغوية المنبثة في القصيدة جميعها، والنزعة السردية القائمة على الصراع، ففي القصيدة مواجهة بين الإنسان والدهر وبين الإنسان و الإنسان، وميدان هذا الصراع هو فسحة زمانية تحقب إلى ثلاث لحظات بداية و وسط ونهاية. (47)

وبهذه الرؤية النقدية فتح" مفتاح "المجال واسعا امام النقاد من اجل إثراء وإغناء أفكاره النقدية المتميزة وذلك بوضع النصوص التراثية في أدبنا العربي القديم تحت ضوء المناهج الحديثة المعاصرة كالمنهج السيميائي والتداولي والبنيوي ...بل الأكثر من ذلك فقد استعان ببعض العلوم الحديثة مثل :

الذكاء الاصطناعي: إذ اعتبر " مفتاح" أن هذه النظرية وليدة تنظيرات "بيرس" حينما صرح "أن السيميوطيقا البورسية، هي من بين الأسس التي قامت عليها نظريات الذكاء الاصطناعي في وصف عملية الإنتاج والتلقي وتأويلها*(48)، أو هي وليدة ثورة المعلومات والإعلامية و البيولوجيا على حد سواء فقد بالغت هذه النظرية في التقريب بين ذاكرة الإنسان و ذاكرة الحاسوب لتجتمع في دراسات خاصة الدراسات اللسانية من جهة، واللسانيات الحاسوبية من جهة ثانية إذ أصبحت من خلاله تصنع النصوص وتحلل، وخصوصاً استثمار مفهوم الغرض الاستكشافي"، وهي نظرية تم من خلالها اللقاء بين الدراسات اللسانية واللسانيات التحسبية، إجراءات الذكاء الاصطناعي، وخلاصة اندماج مجموعة من النظريات البيولوجية والمعلوماتية والنفسانية والإعلامية التي صيغت

خلالها نظريات ومفاهيم متعددة مثل: "الأطر (Frammes)، والمدونات (Scripts)، والحوارات (Scenarios)، والخطاطات (Shemata Schema)، من القمة إلى القاعدة (Top Down)، والغرض الاستكشافي (Abdiction).
وقد رأى "محمد مفتاح" أن الدماغ يحتوي على ذاكرة فإن الحاسوب له ذاكرة سواء أكانت قصيرة أو طويلة. وإذا كان الدماغ يأمر بتنفيذ الأوامر بكيفية متسلسلة ومنتظمة فإن الحاسوب يقوم بتنفيذها بالكيفية نفسها. هذه المبادئ هي التي نجدها تتحكم في نظرية التواصل والعمل فكل عمل يثير عملا من سلسلة متتالية وحسب خطط معينة في توالد وصيرورة وكل فعل تواصلي مترابط الأعضاء يتأثر بعضها ببعض ويتداعى بعضها لتداعي بعض[49]
ونظرية التواصل والعمل التي ركزت في تأصيلها المعرفي والاجرائي على دعامتين أساسيتين الدينامية والتفاعل واستعان فبها الناقد في دراسته النقدية للاعتبارها أنها توليفة لنظريات مختلفة تنتخب من نظرية العمل التاريخية والاجتماعية وتأخذ بمفاهيم نظرية أفعال الكلام ونظرية اللعب اللغوي[50] .
ونظرية الشكل الهندسي والتي هي شبيهة بالنظرية الكارثية التي تعد أبستمولوجيا مثالية ذات منهجية رياضية عملت على تحطيم الحدود بين العلوم الانسانية والعلوم البحتة [51].
كل هذه النظريات التي بنى عليها الناقد المكون المعرفي أبستمولوجيا وهو يباشر العملية النقدية يعكس الطابع الموسوعي الشامل الذي تترابط فيه الاجزاء بالكل، بل هي دعوة صريحة لتعانق العلوم الانسانية بالعلوم التجريبية البحتة وسيرها في خطوط متوازية وأن لا تطور للعلوم التجريبية البحتة إلا بتطور العلوم الانسانية ، وبهذا يكون "محمد مفتاح "فتح الباب على مصراعيه امام النقاد لإغناء وإثراء مشروعه النقدي المفتوح.

.

التهميش :

1- إبراهيم عبد الله، الثقافات العربية وللمرجعيات المستعارة تداخل الأنساق والمفاهيم ورهانات العولمة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،ط1، 1999.ص14
2- المرجع نفسه، ص14.
3- علي بوخاتم مولاي، الدرس السيميائي المغاربي، دراسة وصفية نقدية إحصائية في نموذجي عبد المالك مرتاض ومحمد مفتاح، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط،2005،ص03.
4- المرجع نفسه،ص04-05.
5- المرجع نفسه،ص37.
6- المرجع نفسه،ص37.
7- محفوظ عبد اللطيف، جمال بندحمان، محمد مفتاح المشروع النقدي المفتوح، منشورات الاختلاف ، ط1، 2009.ص13.
8- علي رضا النحوي زعربان، تقويم نظرية الحداثة، دار النحوي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1، 1992.ص35.
9-عبد العزيز حمودة ، المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيكية ، دار المعرفة ، الكويت ، ط1 ، 1998 ،ص31.
10-علي مصباحي ،التجربة النقدية عند محمد مفتاح ،رسالة ماجستير– مخطوط - جامعة باتنة، 2013ص138
.

11- المرجع نفسه ص138.
12-زايريس، الناقد محمد مفتاح مشروع نقدي رائد لتطوير الدرس الأدبي مغربيا وعربيا، الثامنة مساءًا 2015/09/20، ttp://maghress.com/zapress/1599
13- المرجع نفسه .
14- محفوظ عبد اللطيف، جمال بندحمان، محمد مفتاح المشروع النقدي المفتوح ،ص13
15- المرجع نفسه ص12-13.
16- مفتاح محمد، تحليل الخطاب الشعري واستراتيجية التناص، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط4، 2005ص07.
17- مفتاح محمد، في سيمياء الشعر القديم، دراسة نظرية وتطبيقية، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1982.ص09.
18-مفتاح محمد، التلقي والتأويل مقاربة نسقية، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1994.ص07.
19- مفتاح محمد، دينامية النص تنظير وإنجاز، المركز الثقافي العربي ، بيروت، ط1، 1987.ص07.
20-علي مصباحي ،التجربة النقدية عند محمد مفتاح ،رسالة ماجستير– مخطوط - جامعة باتنة، 2013ص89.
21- المرجع نفسه،ص89.
22- محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري واستراتيجية التناص،ص08.
23- مسعود صحراوي ،التداولية عند العلماء العرب ، دار الطليعة للطباعة ، بيروت ،ت،2005ص16.
24- ينظر المرجع نفسه ، ص.08
25- الزواوي يغورة ،الفلسفة واللغة ،دار الطليعة للطباعة ، بيروت ،ت،2005ص104
26- محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري واستراتيجية التناص ص09.
27- ينظر المرجع نفسه، ص09.
28- ينظر المرجع نفسه، ص09.
29- ينظر المرجع نفسه، ص10.
30- شاكر عبد الحميد ، الأس النفسية للإبداع الفني في القصة القصيرة خاصة ، هيئة المصرية العامة للكتاب القاهر، د ط ، ت 1992، ص92.
31- ينظر المرجع السابق ص12.
32- محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري واستراتيجية التناص ، ص12 .
33- حسن ناظم ،مفاهيم شعرية دراسة مقارنة في الأصول والمنهج والمفاهيم ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ،ط1،ت 1994،ص79.
34- ينظر المرجع نفسه ، ص13.
35- محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري واستراتيجية التناص،ص13.
36- ينظر المرجع نفسه، ص14.
37- ينظر المرجع نفسه ،ص14.
38- ينظر المرجع نفسه، ص07.
39- ينظر المرجع نفسه، ص339.
40- ضياء الدين نصر الله ابن الاثير الجزري ، المثل السائر في أدب الكاتب ،تحقيق محد محي الدين عبد الحميد البالي الحلبي ، دار الاحياء للكتب العربية ، القاهرة ج1،دط، ت1939،ص353 .
41- ينظر المرجع السابق ، ص55.
42- يوسف ابو العدوس ، الاستعارة في النقد الادبي الحديث ، منشورات دار الاهلية ، عمان ط1، ت1998 ص11.
43- ينظر المرجع نفسه، ص11.
44- ينظر المرجع نفسه ص154
45-جوليا كرستيفا ، علم النص ، ترجمة فريد الزاهي ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ت1991 ص97
46- محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري واستراتيجية التناص،ص336

47- المرجع نفسه،ص336
48- علي بوخاتم مولاي، الدرس السيميائي المغاربي، دراسة وصفية نقدية إحصائية في نموذجي عبد المالك مرتاض ومحمد مفتاح، ص37
49- مفتاح محمد، دينامية النص تنظير وإنجاز،.ص31-32
50- - محفوظ عبد اللطيف، جمال بندحمان، محمد مفتاح المشروع النقدي المفتوح، منشورات الاختلاف، الجزائر ص197
51- المرجع نفسه ،ص193.